

في ذكرى وفاة

مؤرخ وعالم دمشق أحمد وصفي زكريا

كثيرون منا عرف أو سمع أو قرأ شيئاً مما ألفه عالم دمشق الكبير أحمد وصفي زكريا العالم الموسوعي والمؤرخ المدقق، ومن قرأ له يدرك مباشرة أنه كاتب موسوعي مدقق باحث متتبع دؤوب ذاعت شهرته في أوساطنا الأدبية والأثرية والعلمية والزراعية في سورية وفي وطننا العربي بالإضافة إلى جهوده الوطنية وخبرته العلمية التي قدمها لكل من سورية ولبنان وفلسطين واليمن والعراق والأردن وقد توفي في مثل هذه الأيام من عام 1964 في منزله بدمشق عن عمر يناهز الخامسة والسبعين بانفجار في الدماغ أثناء مراجعته الأخيرة لكتابه المخطوط "حيوانات بلاد الشام" الذي لم يظهر للوجود إلى الآن.

عاش العلامة أحمد وصفي زكريا خمسة وسبعين عاماً في الدرس والبحث وحتى أنه في أواخر حياته ورغم تقدم سنه كان يستحث الخطأ متكناً على عصاه منتقلاً من تل لآخر ومن قرية لأخرى باحثاً منقّباً عن نهر مرا "امرأة" الذي ذكره الرحالة والشعراء والذي بقيت آثاره مجهولة حتى قام بالكشف عن بعض مواقعه وتحديدها. وأعد بحثاً عنه نشر بعد وفاته في مجلة الحوليات الأثرية. فمن هو العلامة أحمد وصفي زكريا وما الذي قدمه؟ ولد عام 1889 في دمشق وقد أتم فيها دراسته الابتدائية والثانوية وانتقل إلى استنبول والتحق بالمدرسة الزراعية العليا وتخرج منها عام 1912 مهندساً زراعياً وقد كانت أولى أعماله أن عين في سلمية بمدرستها الزراعية التي كانت قد أنشئت حديثاً ثم أصبح مديراً فيها ثم شغل منصباً في مديرية الحرير في بيروت عام 1914 وفي المدرسة الزراعية في الأطرون بين القدس ويافا ثم كلف بمهمة مكافحة الجراد في دير الزور عام 1916 وفي

الحكومة الفيصلية شغل عام 1919 منصب مدير مدرسة سلمية الزراعية وفي عام 1924 عين مفتشاً لأملاك الدولة.

في عام 1936 ثم استدعاؤه لليمن كمستشار فني زراعي وقد قدم الكثير هناك وقام بإدخال زراعات جديدة تتناسب مع البيئة اليمنية وأقام في اليمن سنتين ورغم استدعاء حكومة العراق له ليدرس في مدرسة دار المعلمين الريفية في بغداد إلا أنه بقي على اتصال مع مسؤولي اليمن ومختصي الزراعة هناك للاطمئنان عن أبحاثه وحسن سير منجزاته في فصل الزراعة في اليمن وقد ترك في أوراقه الكثير من الرسائل والأوراق التي تثبت متابعته واهتمامه بذلك رغم تركه اليمن.

بقي في العراق حتى عام 1941 خلال ثورة رشيد عالي الكيلاني واستدعته حكومة الأردن عام 1942 ليكون مديراً عاماً لوزارة الزراعة في عمان.

في عام 1943 عينته الحكومة السورية مفتشاً عاماً لوزارة الزراعة وبقي في وظيفته حتى عام 1950 حيث أحيل على التقاعد لبلوغه السن القانوني وقد اختارته الدولة في أواخر حياته عضواً في المجلس الأعلى للعلوم والآداب.

عاش العلامة أحمد وصفي زكريا في فترة تاريخية عصيبة فقد عاش في ظل الحكم العثماني ثم الاحتلال الفرنسي وعاش الاستقلال العربي فكان بذلك مجيداً للغة العربية والتركية والفرنسية مما جعل أمامه مصادر كثيرة وآفاق علمية واسعة.

أضف إلى ذلك ولعه في الرحلات وفي الدراسات التاريخية والجغرافية وكثرة أسفاره جعلت لديه حصيلة علمية تاريخية أثرية وجغرافية واسعة جداً انعكست على مؤلفاته التاريخية الهامة التي تركها.

ففي مجال اختصاصه المهني كمهندس زراعي كان رائد العلوم الزراعية في وطننا العربي، فهو أول من أسس مدارس زراعية في كل من سورية ولبنان وفلسطين والأردن والعراق واليمن وهو أول من وضع مناهج وبرامج للمدارس الزراعية وهو أول من عرب المصطلحات الزراعية وألف ووضع الكتب الزراعية

العلمية، وكتبه الزراعية رغم مرور حوالي نصف قرن عليها ما تزال أهم وأدق المصادر العلمية في الميدان الزراعي، وقد تخرج على يديه الكثيرون من المهندسين الزراعيين والمختصين أثناء توليه منصب أستاذ في كلية الزراعة بدمشق.

وفي ميدان الأبحاث التاريخية والأثرية والجغرافية ترك العلامة أحمد وصفي زكريا آثاراً هامة كان فيها رائداً في أبحاثه متميزاً في تدقيق المعلومات والبحث والتقصي، وكان يعتمد على المشاهدة الحسية وهو يعتمد أيضاً على استقراء المعلومات ومناقشتها مع أصدقائه العلماء والأدباء وأهل الدراية ثم بعد ذلك يعود لاستقراء المعلومات المتوفرة والمتوفرة لدى العامة. وذلك في سبيل استكمال سائر أنواع المصادر والمعلومات حول الموضوع الذي يدرسه.

ترك العلامة أحمد وصفي زكريا الكثير من المؤلفات سواء في حقل اختصاصه المهني كمهندس زراعي أم في حقول أبحاثه التاريخية والأثرية والجغرافية. ففي مجال اختصاصه المهني خلف الآثار التالية:

1. الدروس الزراعية للصفوف الابتدائية 3 أجزاء صدر بتاريخ 1925.
2. المفكرة الزراعية وهي تحوي خلاصة الفنون والأعمال الزراعية وقد صدر عام 1930.

3. زراعة المحاصيل الحقلية في بلاد الشام في جزأين صدر عام 1951.
- في المجال التاريخي والأثري والجغرافي:

1. جولة أثرية في بعض البلاد الشامية صدر عام 1934.
 2. عشائر الشام بجزأين صدر عام 1945.
 3. الريف السوري محافظة دمشق جزءان صدر عامي 1955، 1957.
- أما في المخطوطات التي تركها فهي:

1. حيوانات بلاد الشام البرية.

2 . مقالات عن رحلته إلى اليمن وتاريخ وأحوال اليمن.

3 . مقالات مختلفة زراعية وتاريخية وأثرية وجغرافية كانت قد نشرت في الصحف والمجلات السورية والعربية.

يضاف إلى ذلك بعض المقالات التي نشرت اعتباراً من عام 1936 ولغاية 1957 في بعض الصحف العربية.

يضاف إلى ذلك كثير من الأبحاث المخطوطة والمقالات غير المنشورة والتي وجدت في أدراج مكتبه بعضها في اللغة العربية وبعضها الآخر في اللغة التركية.

أحمد غسان سبانو